رواية "متاهات ليل الفتنة" وتناصها مع الأمثال الشعبية

* سعيد سلام

صدرت للكاتب حميدة عياشي[1] رواية "متاهات ليل الفتنة" 2000[2]، وهي الرواية الثالثة له بعد روايتي "ذاكرة الجنون والانتحار" 1987، "هوس" 2007. وتندرج رواية "متاهات ليل الفتنة" التي نحن بصدد دراسة تناصها مع الأمثال الشعبية ضمن الروايات الجزائرية القليلة التي رصدت ظاهرة الإرهاب وتشريح معضلاته والوقوف عند خصائصه وأبعاده، باعتباره تجربة مريرة عاشها الشعب الجزائري في تسعينات القرن العشرين. فخاضت في تحليل أبعاده التاريخية والإيديولوجية والنفسية. وحاولت إيضاح خلفياته وفكّ رموزه المعقدة وألغازه المتشابكة في مجال البحث.

والرواية من هنا قد سجلت العديد من التجارب والأحداث المأساوية التي رآها المؤلف جديرة بذلك، ودعوة لإدانة العنف بجميع أشكاله وأنواعه وهذا ما يبرر نقده المزدوج لكل من السلطة الحاكمة والجماعات الإرهابية المسلحة ذات المنطلقات الدينية المتطرفة، كما يدعو بشكلٍ يكاد أن يكون صريحا إلى نشدان قيم جديدة مثل الحلم بتحقيق قيم الحرية والعدالة والديمقراطية، ومراعاة الحقوق الفردية والجماعية للمواطنين.

ننبه في البداية أن الاهتداء إلى تلخيص أحداث هذه الرواية من الصعوبة بمكان، إذ إنّ نموّ أحداثها لا يتم وفق نسق خطي يبدأ من نقطة معينة ويمر بتحولات ومنعرجات تشكّل لحظة الأزمة والتعقيد وتنتهي بلحظة الانفراج أو الحل، وإنما تنطوي الرواية على حكايات صغيرة تنحرف الأحداث فيها عن القصة الإطار والبناء التسلسلي، الذي يتخذ خطا مستقيما تتطور فيه الأحداث من نقطة البداية إلى النهاية.

---

*جامعة الجزائر2

تبدأ قصة الرواية من حادثة المجزرة الإرهابية التي نفذتها جماعة الأمير المدعو أبو يزيد صاحب الحصان الأشهب في بلدة ماكدرة بولاية سيدي بلعباس. ومن هذه النواة ينطلق البرنامج السردي الذي تتكفل بتنفيذه مجموعة من الشخصيات مكونة من بعض الصحافيين الذين تجندوا لبحث حقيقة الإرهاب وكشف خلفياته في الجزائر. فالراوي ينطلق من الزمن الراهن من منطقة ماكدرة بجبال مدينة سيدي بلعباس وبالضبط من الهجوم الذي اكتسحها من قبل الإرهابيين في إحدى أيام ديسمبر 1995 على الساعة الواحدة صباحا. وتعمد لتفكيك خطية السرد باسترجاع مرض الصحفي عمر، وظروف إجرائه لعملية جراحية بأحد مستشفيات الجزائر العاصمة 1991، واسترجاع أيام طفولته ثم الانتقال إلى 1994 لعرض كوابيس احميدة الراوي وما كان يشعر به من فزع في خضم الأزمة التي كانت تعيشها الجزائر، ثم العودة إلى ماكدرة مرة أخرى. كما يسترجع الراوي تفاصيل حياة أسرته أيام الثورة وفي عهد الاستقلال للجزائر، والانقلاب العسكري 1965 وما رافقه من ملاحقات، ثم الانتقال إلى 1967 ، وزيارة الرئيس هواري بومدين للمنطقة وخطابه الموجه لشبابها. كما استعرض أيضا فترة ميلاد التعددية الحزبية وصعود التيار الإسلامي إلى الواجهة السياسية، ثم يدخل في صميم معضلة الإرهاب من خلال عرض مجزرة سفيزف التي أسفرت عن ذبح سبع عشرة معلمة؛ ليسترجع بعدها أحداث 5 أكتوبر 1988 ومنها يعود إلى حاضر الجزائر أي العودة إلى نقطة البداية أي مجزرة ماكدرة التي لعلها تختصر صورة الجزائر. ويتضح من خلال ما سبق أن البداية تحيل إلى النهاية والنهاية تقود إلى البداية، إنه بحق زمن دائري يوحي بصعوبة زمن الخروج من متاهات الزمن الراهن المدمر ومتاهات الحقيقة الغائبة.

وتتضمن الرواية عددا من المقاطع المتجزّأة من السيرة الذاتية لبعض الصحافيين، الذين أُتيح لهم التعامل مع الأطراف الفاعلة في ساحة الصراع السياسي بين السلطة الحاكمة من جهة، والجماعات الإسلامية المسلحة من جهة أخرى. فالراوي نفسه كان يشتغل خلال فترة تنامي العنف صحافيا بجريدة "الخبر" مكلفا بمتابعة القضايا الأمنية، يعيش حياة اجتماعية قاسية، متنقلا بين العاصمة ومدينة سيدي بلعباس. فاحميدة هو الكاتب نفسه يتدخل في الكثير من المواضع خلال الرواية؛ ليضئ جوانب مهمة من ماضيه وماضي ماكدرة. ويتم ذلك عبر سرد استرجاعي (Flash-back) يعكس الفشل الدراسي الذي مُني به، حُبُّه لآنسة وعباسية والتقاؤه

بزوجته عائشة، وحروب الأحياء التي كانت تشتعل بين الأطفال عند الانتهاء من كل سنة دراسية. ويتذكر العنف الذي اكتشفه صغيرا في ماكدرة وسيدي بلعباس حيث كان قانونا واللاعنف استثناء وشذوذا وكان مرادفا للرجولة والبطولة[3].

ويذكر نشاط بعض زملائه الصحافيين وما تعرضوا له من خطر واغتيالات، فيروي حدث إجراء عمر وعليّ خوجة رفقة بعض الصحافيين الآخرين حوارا مع أحد جنرالات السلطة. فيبوح لهم بالكثير من الحقائق والأسرار حول الصراع الذي كان دائرًا بين الأطراف المتنازعة على السلطة. وفي طريق عودة عمر من جبال تاسفور بسيدي بلعباس إلى الجزائر العاصمة يتعرض للاغتيال والتمثيل بجثته من قبل جماعة مجهولة الهوية. كما يلتقي عليّ خوجة بالأمير أبي يزيد صاحب الحصان الأشهب المتحصن بالجبل فيتحاور معه ومع جماعته في كيفية حل الأزمة السياسية في الجزائر، على أمل أن ينقل انشغالاتهم ومطالبهم إلى الرأي العام، وفي طريق العودة إلى الجزائر العاصمة يتعرض هو الآخر للقتل لأسباب مجهولة أيضا.

ومع أن الرواية قد عالجت موضوع الإرهاب وسبرت أغواره وأبعاده، فإنها لم تخل من التفاعل مع النصوص التاريخية والدينية والأدبية، وخصوصا تناصها مع بعض الأمثال الشعبية وتداخلها مع عناصرها وجزئياتها كما سنوضحه في هذه الدراسة. فهي تستقي من كتاب **ابن الأثير "الكامل في التاريخ"** شخصية أبي يزيد النكاري صاحب الحمار الأشهب [4] التي يجعل لها كاتب الرواية في حاضر الجزائر شبيها في أبي يزيد صاحب الحصان الأشهب وهو الشخصية المتخيلة في نص الرواية.

فإذا كان أبو يزيد النكاري قد حاول القضاء على الخلافة الفاطمية ببلدان المغرب قديما بدعوى ابتعادها عن مبدأ **"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"**، فإن أبا يزيد صاحب الحصان بطل الرواية كان يسعى هو الآخر للإطاحة بالسلطة الحاكمة في الجزائر حديثا بدعوى ابتعادها أيضا عن هذا المبدأ الذي كان يشكل حافزا لخروج الرجلين على السلطة والتمرد عليها، وهو يمثل منطلقا وسندا لثورتهما ومصدرا للفتن القائمة في الوطن العربي وسببها المباشر.

فقد حاول كل من الرجلين الثائرين تحقيق قناعاتهما الذاتية في تكفير المجتمع العربي المسلم بعد تكفير الدولة، وينصرفان إلى تنفيذ الأمر الإلهي بإقامة المعروف والنهي عن المنكر. فيفشل أبو

يزيد صاحب الحمار في تحقيق ذلك في ظل الخلافة الفاطمية في الماضي، التي حاولت فرض مذهبها الشيعي في بلدان المغرب وهذا على الرغم من أن أهله كانوا يميلـون إلى السنـة المالكيـة، واعتبر نفسه المعني سياسيا ودينيا بتصحيح مسار هذه الخلافة.

والشيء نفسه يتبناه الأمير أبو يزيد صاحب الحصان في ظل السلطة الجزائرية في الحاضـر؛ حيث اعتبرها منحرفة، وهذا الانحراف ناتج عن عدم تطبيق تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه، الأمر الذي جعله يلجأ إلى دار الهجرة وهي جبال ماكدرة بسيدي بلعباس، متبنيا بذلك نزعة أبي يزيد النكاري العنف وسيلة لإعادة الشرعية الدينية للشعب الجزائري.

وتكشف المماثلة بين الرجلين موقف الكاتب من التاريخ الذي يعيد نفسه. فما حدث بالأمس من ثورة عنيفة كادت أن تعصف بالدولة الفاطمية في بلدان المغرب شبيه بما يحدث في راهن الجزائر، ويرى أن ما تقوم به هذه الجماعات الإرهابية في القرن العشرين ما هو إلا امتداد لحركة الخوارج الذين تمردوا على الإمام عليّ وخرجوا عن طاعته في صدر الإسلام. وهذا الأمر قد انعكس سلبا على الأوضاع المادية والنفسية للمجتمع العربي في الماضي والحاضر على حد سواء وساعد على نشر الرعب والفزع بين المواطنين.

وقبل الشروع في دراسة تناص رواية "متاهات ليل الفتنة" مع الأمثال الشعبية نشير إلى أن البحث سيعتمد على ما تسميه (جوليا كريستيفا) بمصطلح التناص (Intertextualité) أي تداخل النصوص وتفاعلها فيما بينها[5]، باعتباره أداة إجرائية لا ينبغي الاستغناء عنها في أي تحليل أدبي. وسنعتمد في تطبيق إجراءات هذا المصطلح كذلك على تقسيم جيرار جينيت له إلى استشهاد واقتباس وإيحاء أو تلميح[6]. وهذا لدراسة سبعة عشر مثلا وهي مجموع ما تضمنته هذه الرواية، إذ إنّ المثل أو المتناص هو القول الجاري على ألسنة الناس، باعتباره خلاصة تجارب الأسلاف ومحصول خبرتهم تتوارثه الأجيال أبا عن جد. كما أنه يُضرب لشتى الأغراض كالمدح والذم أو الوعظ والإرشاد؛ لإبراز صفات محمودة أو مذمومة، فإنه قد اكتسى أهمية خاصة في التراث العربي قديما وحديثا حيث دفع الكثير من الأدباء والمبدعين للنهل من معينه، أو الاستلهام منه إما على سبيل التزيين لكتاباتهم أو على سبيل الإثراء لها شكلا ومضمونا.

وفي هذا السبيل يعد احميدة عياشي من بين هؤلاء الأدباء الجزائريين المعاصرين، الذين استلهموا معاني الأمثال ذات الشحنات الدالة؛ ليعمق بها أفكاره، التي حاول أن يبثها عبر هذه الرواية، وينفث فيها تلك الروح العميقة المنطوية على مهارة الفنان، الذي خبر مواطن الجمال في كلام الأسلاف، فكانت له نعم المعين في استكمال المشاهد والصور التي عجز قلمه عن التعبير عنها، كما سنرى ذلك من خلال دراسة هذه الرواية، فقد حاول من خلالها إبراز مواقف الشخصيات إزاء العديد من القضايا التي واجهتها، والكشف عن عالمها الداخلي بأبعاده النفسية المفعمة بالألم والتمزق وخاصة أنها عاشت في صميم المأساة الوطنية، التي شهدتها الجزائر خلال العشرية السوداء من القرن الماضي. وهذا ما سنحاول توضيحه وفق هذا الجدول الذي يضم مجموع الأمثال أو المتناصات التي تفاعلت معها الرواية وتداخلت مع عناصرها:

المثل الشعبي	الصفحة	التعيين	الملاحظة
1 "مَحْنَة وفَايْتَه"	16	+ بين قوسين	ورد في إطار السرد
2 الأعمَار بِيدِ الله	24	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
3 أعقلْهَا ثم تَوَكل	24	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
4 قَلَبتْ نظرَتُه رَأْسا على عَقِب	68	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
5 أطلقتُ الريحَ لرِجْلِي	70	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
6 رجَع بخُفَّي حُنَيْن	73	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
7 الرَّفِيقْ قَبْلَ الطَرِيق	82	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
8 نتركُه يَبلَعُ الطُعمَة حتى القَاع	89	– دون قوسين	ورد في إطار الحوار
9 كَانَتْ لَهُ رجلٌ هُنَا ورجْلٌ هُناك	95	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
10 النّاس أعداءٌ ما جَهِلُوا	137	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
11 "حمَار مَات"	148	+ بين قوسين	ورد في إطار السرد
12 إنَّكَ تَدْخُلْ بِئْرًا لا قاعَ لَه	164	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
13 يَضْربُ كَفًا بكفّ	201	– دون قوسين	ورد في إطار الحوار
14 مَعزَة ولَو طارَتْ	215	– دون قوسين	ورد في إطار الحوار
15 أقولُ مكتوبٌ وأقولُ قَدَر	219	– دون قوسين	ورد في إطار السرد
16 يَد اللهِ مَع الجَمَاعَة	241	– دون قوسين	ورد في إطار الحوار
17 تَفَاءَلْ بِالخَيْرِ تَنَلْه	241	– دون قوسين	ورد في إطار الحوار

يُلاحظ أن أغلب المتناصات (Intertextes) التي تضمنها هذا الجدول كانت منقولة نقلا غير حرفي ولم توضع بين قوسين. كما أن توظيفها كان عبر تقنيتي السرد أو الحوار. وقد ورد أغلبها على لسان شخصيات روائية تملك مستوى تعليميا ومهنيا رفيعا أسهمت في توضيح إدراكها للواقع الجزائري الذي كانت تعيش تناقضاته الحادة.

وعلى الرغم من أن القارئ لهذه المتناصات يحس بمحافظة الكاتب على نفس معانيها التراثية المعروفة بفضل محافظته على شكلها الأصلي المعروف أيضا. غير أن ورودها في سياق هذا النص الروائي الجديد فجرت دلالات معاصرة فيه نتيجة لما أحدثه وجودها فيه من جدلية وحركية. وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال المتناصات المبثوثة داخل الرواية:

على إثر الهجوم الإرهابي المروع من قبل جماعة الأمير أبي يزيد صاحب الحصان على ماكدرة في ديسمبر 1995، وهي قرية حميدو الصحافي، حيث أُصيب والده في هذا اليوم بالرعب والهلع كاد يقضي عليه من هول هذه الحادثة. فقال له المتناص: **"مَحْنَة وفَايْتَه"**[7] تخفيفاً عليه وتنفيساً له من الجو الدرامي الحزين، وحثّه على الصبر لتجاوز الصدمة النفسية الناتجة عن هذا الهجوم. فالأصل في المتناص هو **"شَدّة وتزُول"**[8]، حيث استبدل الكاتب الكلمتين: **"شدة، تزول"** في نصه الجديد إلى كلمتي: **"محنة، تفوت"**، توخيا للمبالغة والتشديد من هول المصيبة والحث على احتمالها. وهو ينسجم بهذا الاستخدام مع سياق الحدث ومع طبيعة الشخصية الناطقة به.

وفي يوم الحادثة يتلقى حميدو اللوم والتقريع من خاله بسبب المجازفة بروحه بالمجيء من الجزائر العاصمة إلى قرية ماكدرة بسبب تدهور أوضاعها الأمنية، ولكونه صحافيا مستهدفا كبقية الصحافيين، ورجال الأدب والثقافة من قبل الإرهاب، فيجيبه حميدو مطمئنا له بالمتناص: **"الأعمَار بيَد الله"**[9]. ولكن مع ذلك ينصحه بضرورة توخي الحيطة والحذر ويدعم كلامه هو الآخر بالمتناص: **"اعقِلْها ثم توَكّل"**[10].

يُلاحظ على هذا المتناص أن كاتب الرواية قد أحدث فيه شيئا من التعديل في شكله بحيث إنه قد استبدل حرف (الواو) للعطف في الأصل **"اعقلها وتوكّل"** بحرف العطف (ثم) الذي

يفيد من حيث المعنى الترتيب والتراخي وهو يناسب الحدث الذي يتطلب الاحتياط للأمر وأخذه بحزم وجدية.

لم يكن مولاي إسماعيل (والد الصحفي حميدو) مثل أبيه مولاي إبراهيم محبا للسياسة على الرغم من أن مصالي الحاج (زعيم حزب الشعب الجزائري أثناء الاحتلال) قد عقد تجمعا ضخما في المسرح البلدي بالمنطقة، وأن عمه مولاي علال الشلحي، الذي كانت عائلته تقيم عنده في المزرعة كان يُقتاد من حين لآخر إلى السجن بتهمة التعاطف مع الثورة والتواطؤ مع الثوار. غير أن ما حدث في سنوات الثورة من مداهمات واعتقالات، ثم مشاركته التلقائية في مظاهرات 11 ديسمبر 1960 أثناء تواجده للعلاج بسيدي بلعباس، وإلقاء القبض عليه بعد ذلك مباشرة حيث ينقل من بيته على متن سيارات عسكرية إلى محتشد بودانس الذي يبعد عن ماكدرة بحوالي ستين كيلومترا حيث يقضي فيه ستة أشهر، وخلالها يكتشف لأول مرة أن الحياة لا تنتهي في شوارع وحقول ماكدرة إذ وجد نفسه محاطا بشباب وكهول وشيوخ جِيء بهم من كل المناطق، ووجدهم يخوضون الحديث في مسائل الثورة والتمرد والحرية والمساواة، ويتناقشون في موضوعات وقضايا أخرى لم يسمع بها ولم يكن على علم بها من قبل. فتغير هذه الأمور نظرته إلى الحياة وتنقلب "**رَأْسا عَلَى عَقِبْ**"(11) كما يقول الراوي. ويُقال هذا المتناص "**تَنقَلبُ رَأسًا عَلَى عَقِبْ**" باللغة العامية أيضا: "**قْلبْها بُوقَاعْ ورَاسْ**"(12). وفي المعنى نفسه يقول الله تعالى: "**فلمَّا جَاءَ أمرُنَا جَعَلنَا عَالِيهَا سَافِلهَا**"(13).

فالقارئ يحس بإدماج الكاتب لهذا المتناص بصورة تلقائية وفي المكان المناسب له في مقام سرد مولاي إسماعيل لحياته أيام اعتقاله في المحتشد المذكور، كما أنه يلاحظ أن المؤلف قد أدمجه بلفظه الأصلي، لتأكيد تعلقه بالتراث وإعجابه به شكلا ومضمونا. وقد تكرر في الرواية في صفحات: 95، 163، 257، بفضل طاقته المعنوية المعبرة عن التطور في مواقف الشخصية فعّمق الحدث ووضحه لمناسبته للتداعيات الجديدة لأطوار الرواية.

ويروي مولاي إسماعيل قصة اعتقاله عقب مشاركته في مظاهرات 11 ديسمبر 1960 أثناء الثورة في مدينة سيدي بلعباس –كما تقدم- حيث وقعت الاشتباكات بين المتظاهرين الحاملين للعلم الجزائري وبين القوات الفرنسية المدجّجة بالعصي والهراوات والرشاشات والدبابات.

فيقول إنه عندما شرعت هذه القوات في إطلاق النار وبجنون، أخذ الناس يسقطون ويهربون سرى في مفاصله وعروقه خوف ورعدة كبيرة. فيفر بسرعة فائقة في طريق الوادي وقد عبر عنها بالمتناص: "**أَطلَقتُ الرِيحَ لرجْلِي**"[14]، تدعيما لهول المشهد وتعبيرا عن السلوك الغريزي للإنسان عندما يداهمه الخطر.

كما يورد الراوي قصة اعتقال الشرطة السرية لمولاي علال عم حميدو وأخي إسماعيل مولاي في عهد الاستقلال للجزائر، حيث يروي عن مجيء بدرة زوجة مولاي علال ليلا إلى بيت مولاي إسماعيل باكية بسبب اعتقال الشرطة السرية لزوجها بتهمة العمالة والخيانة للثورة، فيذهب رفقة مصطفى مولاي علال صباحا إلى مركز الأمن العسكري للاستفسار عن مصيره. ويظلان في انتظار الإجابة طول النهار ثم يعودان إلى البيت خائبين. يشبه الراوي في إطار السرد هذه العودة الخائبة لهما "**بِخُفَّيْ حُنَيْن**"[15]. فيُلاحظ أن الكاتب قد عمد إلى اجترار المتناص التراثي "**رَجَع بِخُفّي حُنَيْن**" إذ اكتفى بإجراء تغيير طفيف عليه لا يمس جوهره بسوء وهو استبدال كلمة "رجع" في المتناص الأصلي للمفرد بكلمة "**قفلا عائدين**" للمثنى في الرواية، وهو تغيير يسهم في خلق شعرية النص الروائي الجديد.

وبمناسبة إطلاق سراح مولاي علال من السجن في 7 جوان 1967، وفوز ابنه حميدو بالشهادة الابتدائية وانتقاله إلى المستوى المتوسط. تُقيم إحدى صديقات جدة حميدو من أمه حفلا بهيجا حضرته كل مغنيات بلدة ماكدرة. وظل حميدو يتابع الحفل من نافذة البيت الكبير المطلة على الساحة المخصصة لهذا الحفل. ومن جملة ما كانت تغنيه المغنيات وتنشدنه أثناء الرقص قولهن في مقام السرد: "**الرّفِيق قَبْل الطّرِيق**"[16]. وقد جاء المتناص عرضا ومن دون هدف محدد في الرواية، ومن ثم فهو يدخل في باب التوجيه والإرشاد والاتعاظ بما ورد من أمثال السابقين في الحث على حسن اختيار رفيق السفر بغية الاستئناس به للتخفيف من عذاب السفر وطول الطريق. والملاحظ أن الكاتب قد أدمج هذا المتناص كما هو في أصله من دون تحوير أو تحريف.

وفي معرض اجتماع والي مدينة سيدي بلعباس بمسؤولي السلك الأمني بها للتشاور حول محمد هارون المقاول الكبير والتاجر الغني بالمدينة المتهم بالوقوف إلى جانب الإرهاب، وتمويل الجماعات المسلحة التابعة للأمير أبي يزيد صاحب الحصان. فيدلي كل واحد منهم بدلوه في كيفية

الإيقاع به والتعجيل بذلك، وخصوصا أنه أصبح يلتقي بالأمير أبي يزيد باستمرار، ويقدم له الدعم والمساندة. غير أن مسؤول الأمن العسكري رأى أنه ينبغي إمهاله بإعطائه مزيدا من الوقت وإفساح المجال له في التمادي فيما هو فيه حتى يتجاوز الحدود، فيكون الإيقاع به بعد إثبات التهمة ضده بالدليل القاطع. ويسوق في ذلك المتناص **"نَترُكُه يَبْلَغُ الطُّعمَة حتَى القَاع"**[17]. وهو يكشف جنوح بعض المسؤولين إلى سياسة الملاينة والاستعانة بالحيلة والمكر للإيقاع بالمتهمين والخارجين عن النظام والقانون. لقد عمد الناص أو الناطق بالمتناص إلى إقناع المجتمعين برأيه، وحملهم على تبنيه بالاستشهاد بهذا المتناص الذي يجسد المعنى ويثريه ببعد دلالي جديد.

ويذكر الراوي المتناص: **"كانَتْ لَهُ رِجْلٌ هُنا ورِجلٌ هُنَاك"**[18] بمناسبة محاصرة رجال الأمن فيلا محمد هارون الشامخة بعد اكتشافهم مبيت أبي يزيد فيها في إحدى الليالي. فيلقون عليه القبض. لقد كان رسالة إلى الأمير أبي يزيد كما كان رسالة إلى من يُسمونهم بأثرياء المدينة المنورة الجدد بالولاية، فهي تحذير لهم من المصير الذي ينتظرهم، فهم مثل محمد هارون كانوا يدفعون الأموال سراً لجماعة أبي يزيد لقيام الدولة الإسلامية، ثم يهرعون في الوقت نفسه إلى مركز الأمن العسكري للتبليغ عن أنهم أُرغموا من قبل جماعة الإرهابيين على ذلك. فقال السارد في حقهم هذا المتناص الذي يكشف عن القيم السلبية التي كان ينطوي عليها أثرياء المدينة الجدد، والذين أصبحوا يلعبون على الحبلين ويقيسون الأمور بمقياس الربح والخسارة. وبذلك فقد ارتبط المتناص بالحدث الذي جاء لنقد الأوضاع السائدة واستنكار الواقع السلبي آنذاك.

يجري حوار ونقاش بين إرهابيين من جماعة أبي يزيد حول من أهدروا دمهم. فيسأل الأول زميله لماذا قتلوا الناس ألأنهم يكرهونهم ولا يحبونهم أم لأنهم قتلوهم لأنهم يكرهون الإرهاب والإرهابيين ولا يحبونهم؟ فيرد الثاني بأنهم قتلوا الناس؛ لأنهم لا يعرفونهم لأن مَنْ لا يعرفونه يقتلونه؟ ثم يستشهد بالمتناص: **"النَاسُ أَعدَاءٌ مَن جَهِلُوا"**[19]. لقد استبدل الكاتب اسم الموصول (مَا) لغير العاقل في الأصل: **"الناسُ أعداءٌ ما جَهِلُوا"** بحرف (مَن) لاسم الموصول للعاقل في النص الروائي الجديد للتأكيد على أن المعني بهم في نص الرواية هم بشر وليسوا شيئا آخر. كما أنه أبقى على المتناص بلفظه في الأصل للتأكيد على أصالة عمله والمحافظة على معناه. وقد أورده على لسان الشخصية ليبين موقفها من الأحداث بغية توسيع المتن الروائي وتعميق دلالته.

في إحدى الأيام يستعيد احميدة ذكرى زيارته لزوجته عائشة مرة في ثانوية ابن تومرت التي كانت تدرس فيها بمدينة بوفاريك، حيث ابتهجت عند رؤيته في انتظارها لأول مرة بالباب وتنطق بالمتناص: **"حمَار مَات"**[20] لأن زوجها كان دائم التغيب عن البيت لكثرة أسفاره وعظم مشاغله في مهنته الصحفية، فهي تعتبر زيارته لها في الثانوية مفاجأة وصدفة غريبة غير مسبوقة، وهي شبيهة بموت حمار قلما يكترث لموته أحد. لقد عبر المتناص عن الحدث في كلمتين "حمار"، "مات" لتبرير سلوك الشخصية المقول فيها؛ حيث استغنت عن طول الشرح وكثرة الكلام وهو ما يتلاءم مع البناء الكلي للرواية، كما ينسجم أيضا مع المستوى الطبقي الشعبي للشخصية الناطقة به.

يذكر احميدة الراوي أن زميله عمر الصحفي قد قرأ مراسلة لعليّ خوجة إلى إحدى الجرائد، عن نشاط الجماعات المسلحة في الجزائر. فأراد الأخير أن يعرف رأيه في الموضوع. مع العلم أن الصحافيين الثلاثة: عليّ خوجة وعمر واحميدة كانوا قد اجتمعوا من قبل بأحد الجنرالات المقربين من السلطة، كما اجتمع عليّ خوجة بالأمير أبي يزيد قبل أن يُغتال في طريق العودة من الجبل بماكدرة كما تقدم. فلاحظ عمر أن صديقه عليّ خوجة قد روى في مراسلته الصحفية معلومات جريئة وسرية وجد خطيرة عن تحرك الجماعات المسلحة في الميدان آنذاك. فما كان من عمر إلا أن قال له ناصحا ومحذرا من جرأته بالمتناص: **"إنك تدْخُلُ بِئْرا لا قَاع لَه"**[21]. فلعل ذلك يثنيه عن اقتحام هذا الموضوع الخطير الشائك والبعيد المنال. غير أن ما يُعاب على الناص أو الراوي هو تحويل المتناص إلى اللغة الفصحى في حين إنه يُقال بلفظه في أصله باللغة العامية: **"بِيرْ مَالُه قَاعْ"**[22]. وقد يُضرب أيضا في الشخص الموثوق به في كتم الأسرار وعدم إفشائها.

ويورد الناص في إطار الحوار قصة المدعو "بالجماهير" وهو أحد العمال بمؤسسة إحدى الجرائد التي كانت تصدر بمدينة الجزائر، وأحد المساعدين لسلمى في الحصول على وظيفة مصححة بهذه الجريدة. أراد أن يتزوج بها فترفض بدعوى فظاظته وقبحه واقترنت بغيره. فأصبح يناصبها العداء ويراقب كل ما تقوم به من أعمال. فيذهب مرة إلى رئيس تحرير الجريدة ليبلغه عن سوء التصحيح لإحدى مقالاتها المعدة للنشر، فيستدعيها هذا الأخير ويطلب منها تفسيرا عن سبب هذا التهاون في أداء عملها على الوجه الأكمل، فتجيبه بعد تردد بأن مترجمة المقال هي

خطيبته وهي التي ترجمته بصورة خاطئة، فيستشيط غضبا ويطردها من المكتب على مرأى من "الجماهير" عدوها اللدود فتخرج باكية "**ويَضربُ الجَمَاهير كفّا بكفّ**"[23] حزنا واستنكارا على سلوكها وسوء تصرفها.

لعلّ استدعاء الراوي للمتناص بلفظه الأصلي كاملا هنا كان الغرض منه تكريس التشابه بين الماضي والحاضر من خلال ضرب الشخصية لكفيها، وهو صورة حسية منتزعة من البيئة العربية، يتلاءم مع السياق العام لأحداث الرواية ويسهم في تعميقها وبلورة معناها.

تُلقي شاهيناز زوجة عمر الصحفي باللوم عليه وعلى بقية المثقفين الذين رُوِّضُوا من قبل رجال الحكم، وجعلوا منهم مجرد أعوان فنيين وأدوات حققوا بها مآربهم، وهم وإن استمروا في الحكم فهذا يرجع إلى سياسة البطش التي تبنوها من خلال خنق كل صوت معارض لهم. ولما عجز عمر في إقناع زوجته بأن السبب في استمرار حكام البلاد في السلطة سنوات عديدة ومحافظتهم على مراكزهم رغم التحديات يرجع إلى الذكاء والفطنة التي ينطوون عليها. فتصرّ على رأيها في تجريدهم من خصوبة الخيال وبكونهم يحكمون بدون أفكار فيطلق عليها المتناص: "**مَعْزَة ولَو طَارَت**"[24].

يبدو أن الناص باستيحائه لهذا المتناص ودمجه في روايته في أصله بلفظه من دون تغيير أو تحوير كان للمحافظة على مضمونه كاملا للتدليل على التعصب للرأي عند الشخصية ولو مع الخطأ البين. ويدخل هذا المتناص من ثَمَّ في باب الاجترار للنص التراثي محافظة على معياره الفطري بالعودة إلى الأصل والتواصل معه.

في خِضَمِّ اشتداد تدهور الأوضاع الأمنية في العشرية السوداء تنصح شاهيناز زوجها عمر الصحفي بالتفكير في وضع تدابير وقائية تُنجيه من الاغتيال. فيستهين بالأمر، بل يستخف به معتقدا بأنّ الحذر غير مجد وأن الصدفة هي التي تقتل وهي التي تنجي، ثم يستشهد بالمتناص: "**أَقُولُ مكتُوبٌ وأَقُولُ قَدَر**"[25]. ويسرد كل ما خطر على باله من أقوال وحكم في هذا المعنى. وهو أن كل ما يواجهه الإنسان هو قضاء وقدر، وأن كل ما يصيبه من خير أو شر هو ما كتبه الله له وجعله من نصيبه في الحياة، وليس باستطاعته أن يغيره أو يبدل فيه مهما احترس واحتاط.

فالمتناص: **"أَقُولُ مَكتُوبٌ وَأَقُولُ قَدَر"** مُستوحىً من المتناص التراثي: **"كلّ شَيْء مكتُوبٌ ومُقَدَر"**[26]، حيث صاغه الناص صياغة أخرى مغايرة مناسبة للحدث؛ حيث قام بامتصاص النص التراثي وتحويله لكسر الجمود الذي قد يغلف أشكاله، وذلك عن قناعة راسخة في عدم محدودية الإبداع والانفتاح نحو فضاءات نصية جديدة.

يستعيد كمال منصور الطالب الجامعي، وأحد أعضاء التنظيم الطلابي، والجبهة الإسلامية للإنقاذ سابقا، ذكرى هروبه من سجن "لامبيز" الروماني بباتنة مع حوالي مائة معتقل إلى جبال تادموت، حيث تقيم سرايا الكتيبة الخضراء، التي يشرف عليها الأمير أبي يزيد. فيتذكر استقبال هذا الأخير لهم. والكيفية التي ألقى بها خطبته عليهم في الحض على الاتحاد والتعاون لزلزلة الطاغوت، وهدّ أركانه؛ لأن ساعة انهياره قد باتت على قاب قوسين أو أدنى. ثم يشفع كلامه بالمتناص: **"يدُ اللهِ مَعَ الجمَاعَة"**[27]، دون الإشارة إلى أنه مثل، ودون وضعه بين مزدوجتين، وتدعيما لرأيه وتبريرا لمعتقداته، وهو متناص يُنسب أيضا لرسول الله (ص)[28]. وقد جاء مندمجا بكلام الشخصية، كما لو أنه جزء منها.

ويضيف أبو يزيد في خطبته أمام الجموع الحاشدة من الفارين من السجن المذكور قول المتناص: **"تفَاءَل بالخَيْر تَنَلْه"**[29] وهو حديث نبوي أيضا أصله: **"تَفَاءَلُوا بالخَيْر تَجِدُوه"**[30]، وذلك بغرض شحذ الهمم وشحنها بالعزيمة والأمل في النصر على السلطة والطاغوت كما يقول. يُلاحظ أن كاتب الرواية لم يتقيد بالمحافظة على شكل المتناص في لفظه الأصلي، فقد استبدل فعل الأمر للجمع: **"تفاءلوا"** في الحديث النبوي بفعل الأمر للمخاطَب المفرد: **"تفاءل"** في الرواية. كما أنه استبدل فعل المضارع للجمع: **"تجدوه"** في الحديث النبوي بفعل المضارع للمفرد مرادف له وهو: **"تنله"**، ممّا أحدث تحولا على صعيد الدلالة في الرواية في كل من المفردتين **"تفاءل"**، **"تنله"**: فالأولى تعد أقل دلالة؛ لأنها تُطلَق على المخاطب المفرد وليس على المخاطب الجمع كما هو في الأصل، والشيء نفسه يُقال عن المفردة الثانية: **"تنله"** التي هي أقل دَلالة لكونها تطلق على المخاطب المفرد في الرواية وليس على المخاطب للجمع **"تجدوه"** كما وردت في الأصل. ففي إبدال **"تفاءلوا"** بـ: **"تفاءل"**، **"تجدوه"** بـ: **"تنله"** تحقيق لقانون الامتصاص في التناص الذي

حاول كاتب نص الرواية أن يعيد تشكيل مرجعيته وفق تصوراته وقوانينه، فلم يكتف بإعادته وتَكراره بل ذهب إلى أبعد من ذلك لتحقيق البعد الدلالي الذي يصبو إليه.

إن مسار البحث الذي قمنا به حول رواية "متاهات ليل الفتنة" وتناصها مع الأمثال الشعبية قد قادنا إلى استخلاص بعض النتائج والملاحظات والتي نوجزها في الآتي:

- يبدو أن احميدة عياشي لجأ إلى كتابة هذه الرواية بغية التخلص من بعض حالة القلق، التي تملكته سنوات التسعينات من القرن العشرين، وهو يعاين الانزلاقات الخطيرة، التي عرفتها الجزائر واتساع دائرة القتل العشوائي البشع، والتي يستعيد جزءا من وقائعها في هذه الرواية.
- كشف البحث عن وجود آلية التداخل النصي في الرواية من خلال الاستشهاد، والاقتباس والإيحاء، وهو الحضور للأمثال الشعبية أو المتناصات في هذه الرواية. وقد سخرها الكاتب لخدمة الواقع الجزائري، فعكست خلالها نظرته للأوضاع والأحداث المختلفة وأثبت أصالة الشخصيات الناطقة بها تجذرها في البيئة المحلية.
- إن معظم المتناصات كانت تحضر في الرواية لتضيء عالم الشخصيات الروائية، بغضّ النظر عن المنزلة الاجتماعية لها وتصب تقريبا في السياق الاجتماعي والدور التربوي، الذي تؤديه أو تنقل مجموعة من القيم المتصارعة في المجتمع الجزائري إبان المأساة الوطنية.
- إن المتناصات المدمجة في الرواية ما هي إلا عناصر تراثية جزئية من نصوص سابقة شكلت عوالم دلالية أخرى، فأُدمِجَت في الرواية لتوظيفها من جديد في عوالم دلالية مغايرة لإنتاج نص جديد والانفتاح على نصوص أخرى أو سياقات قد لا تكون بالضرورة متوافقة والسياقات الأصلية.
- مراعاة كاتب الرواية لإدماج المتناصات المدروسة بلفظها الأصلي - غالبا- في الرواية للمحافظة على معناها كاملا، ولتأكيد التعلق بالمورث الثقافي الذي ينهل منه ويؤسس عليه مرجعيته.

- كانت معظم المتناصات المدمجة في الرواية مصوغة في قالب لغوي فصيح، وجاءت ضمن كلام الشخصيات، والسارد الذي التزم بهذا القالب الفصيح طوال صفحات الرواية لكونه ساردا داخليا مشاركا فيها أيضا.
- إن أغلب المتناصات في الرواية جاءت على شكل منقول على لسان الراوي أو الشخصية ولم توضع بين مزدوجتين دلالة على أنها من كلامهما، باستثناء المتناصين: **"محْنَة وفَايْتَة"**، **"حمَار مَات"** فقد جاءا باللغة العامية ووضعا بين مزدوجتين كذلك.
- هناك متناصان تكرَّرا أكثر من مرة في الرواية، وهما: **"أطلقْتُ الرّيح لرجْلِي"**، **"جَعَلَها رأسا على عَقِب"**؛ حيث تكرر الأول مرتين وتكرر الثاني ثلاث مرات؛ وذلك ربما على سبيل التدعيم والتأكيد، والإلحاح على البعد المأساوي، الذي ينطبق معناه على الأحداث والأوضاع السائدة، التي عاشتها الجزائر في تلك الفترة التي سبق ذكرها.

وبناء على ما تقدم نقول: إن الرواية قد تداخلت مع بعض العناصر التراثية وتفاعلت معها؛ لإقامة التماثل بين الماضي والحاضر، وكانت قد صدرت على لسان شخصيات تناسب مقامها وحالتها، ومكانتها الاجتماعية؛ لتظهر بذلك واقعية الرواية وتقرّبها من الحياة اليومية للقارئ. وقد وُفق الكاتب في توظيف معظمها داخل مفاصل روايته، بحيث أضافت إليها أبعادا جديدة وقيما أخرى عديدة من دون الإخلال بالبناء الجمالي واللغوي لها.

الإحالات

1- احميدة عياشي: من مواليد 27 ديسمبر 1958 بسيدي بلعباس، صحفي. من مؤسسي أسبوعية "الحدث" 1993، مدير تحرير جريدة "اليوم" 2002، مدير جريدة "الجزائر نيوز" 2010. واشتغل كصحفي في عدة جرائد وطنية أخرى. من مؤلفاته: *ذاكرة الجنون والانتحار* (رواية 1987)، *متاهات ليل الفتنة* (رواية 2000)، *هوس* (رواية 2007)، *الإسلاميون الجزائريون ما بين السلطة والرصاص* (دراسة)، *المسرح والعنف وتجربة القنوط* (دراسة).
انظر: رابح خدوسي، *موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين*، دار الحضارة، الجزائر 2002، ص225.

2- صدرت رواية *"متاهات ليل الفتنة"* من قبل منشورات، دار البرزخ بالجزائر 2000، في مائة وست وثمانين صفحة من الحجم المتوسط، وهذه النسخة هي المعتمدة في هذا البحث.

3- انظر: احميدة عياشي، *متاهات ليل الفتنة*، ص.114

4- أبو يزيد النكاري: هو أبو يزيد مخلد بن كيداد، من بطون بني يِفرن المغربية، من الخوارج الصفرية ومن جماعة النكارية المتطرفة الداعية إلى تغيير المنكر، أعلن في 310هـ - 922م الثورة ضد الخليفة المهدي الفاطمي في بلدان المغرب الإسلامي، يُروى أنه لما دخل مدينة مُرْمَاجَنة لقيه رجل من أهلها وأهدى له حماراً أشهب مليح الصورة فركبه وصار يُعرف من ذلك اليوم براكب أو صاحب الحمار. وكان قصيرا وأعرج وقبيح الصورة. كان مذهبه تكفير أهل الملة، وسبّ الإمام عليّ، واستباحة أموال المسلمين ودمائهم، والخروج على السلطان. وكانت بداية أمره في أيام أبي

القاسم بعد موت أبيه الخليفة عبيد الله الفاطمي، حيث أظهر مذهبه في شتم الصحابة، وتكذيب كتاب الله، فاستغل أبو يزيد نقمة المسلمين على الشيعة وظلمهم، فدخلوا معه القيروان 332هـ - 943م. وتظاهر لهم بالخير والترحم على أبي بكر وعمر، وأمرهم بقراءة مذهب الإمام مالك، فأيدوه وخرجوا ينادون بالجهاد في الأسواق وهم يدقون الطبول، ويحملون لافتات كتبت عليها شعارات دينية وسياسية ضد الشيعة. وهاجموا الشيعة مع أبي يزيد في ضواحي المهدية. وفتح الأخير سوسة بالقوة وسبا النساء، وشق الفروج، وبقر البطون، وأحدث بمدن شمال أفريقيا الخراب، وأهلك بها الزرع والنسل. وكشفت ثورته على خصومه عن نيته في التوسع والاستلاب تحقيقا للذّاته ونزواته. وقد تمكن الخليفة المنصور الفاطمي من القبض عليه 336هـ-947م. فسلخ جلده وصلبه ومثّل بجثته أشنع تمثيل. لقد استمرت ثورته هذه أكثر من ثلاثين سنة، دمر فيها أغلب أقاليم شمال أفريقيا. انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، جـ 6، ط 6، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1976، ص 302-305، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، جـ 3، موفم للنشر، الجزائر 1995، ص500- 508، د. أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة 1995، ص560- 562.

5- انظر:

Julia Kristeva, Bakhtine, Le mot, le dialogue et le roman in *Critique,* Paris, n° 230, 1967.

6- انظر: Gérard Genette, *Palimpsestes*, Le Seuil, Paris, 1983, p.8

7- *متاهات ليل الفتنة*، ص16.

8- انظر: أحمد تيمور، الأمثال العامية، ط4، مؤسسة الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، مصر 1986، ص281.

9- *متاهات ليل الفتنة*، ص24، Kadda Boutarene, *Proverbes et dictons populaires algériens,* Office des Publications Universitaires, Alger, 1986, p.15.

10- *متاهات ليل الفتنة*، ص24. يُروى في سبب ضرب هذا المتناص أن رجلا قال للرسول (ص) أأرْسلُ نَاقَتي وأتَوكّل. قال: "أعقِلْهَا وتَوَكّل". الميداني، *مجمع الأمثال*، جـ 2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1996، ص357.

11- *متاهات ليل الفتنة*، ص68.

12- مسعود جعكور، حكم *وأمثال شعبية جزائرية*، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2008، ص203.

13- سورة هود، آية 82.

14- *متاهات ليل الفتنة*، ص70. لقد تكرر المتناص باللغة الفصحى في ص162 وهو: "وأرجُلاً تَمنَحُ نَفسَهَا للرّيحْ".

15- *متاهات ليل الفتنة*، ص73، الميداني، مجمع الأمثال، جـ 2، ص40.

16- *متاهات ليل الفتنة*، ص82، الميداني، مجمع الأمثال، جـ2، ص52.

17- *متاهات ليل الفتنة*، ص89.

18- المصدر نفسه، ص95.

19- *متاهات ليل الفتنة*، ص137، أبو هلال العسكري، *جمهرة الأمثال*، جـ2، دار الجيل، بيروت، لبنان (د.ت) ص303. يُقال المتناص بصيغة أخرى هي: ***" من جَهِلَ شَيئًا عَاداه"*** . د. عفيف عبد الرحمن، *قاموس الأمثال العربية التراثية*، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1998، ص428. ويُقال باللغة العامية: "اللّي مَا يَعرْفَكشْ يخَسْرَك".

20- *متاهات ليل الفتنة*، ص148.

21- المصدر نفسه، ص164.

22- حسين عليّ لوباني، *معجم الأمثال الفلسطينية*، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1999، ص240.

23- *متاهات ليل الفتنة*، ص 201، الميداني، مجمع الأمثال، جـ2، ص259.

24- *متاهات ليل الفتنة*، ص215، حسين لوباني، *معجم الأمثال الفلسطينية*، ص787.

25- *متاهات ليل الفتنة*، ص219.

(26- محمد توفيق السهلي، *موسوعة الأمثال الفلسطينية*، دار الأقصى للدراسات والنشر، عمان، الأردن (د- ت)، ص438، 439.

27- *متاهات ليل الفتنة*، ص241، حسين لوباني، *معجم الأمثال الفلسطينية*، ص869.

28- انظر: أبو عيسى محمد الترمذي، سنن الترمذي، *الجامع الصحيح*، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 2005، ص620.

(29- *متاهات ليل الفتنة*، ص241.

30- انظر: سعد الدين فروخ، *قاموس الأمثال البيروتية*، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 2000، ص61.